جريمة في قطنا

قصة بقلم محمد المجذوب

- ١ -

كان الرقيب برهان غارقـــا في نوم ثقيل ، عندما انطلق جرس الهاتف الموضوع بحذاء رأسه يقرع سمعه برنين مزعج طويل . ويبـدو انه كان مستغرقا في حلم غير سار ، سرعان ما اختلطت احداثه بهـذا الرنين ، فاذا هو يهب مذعورا ، وفي غير وعي يجذب جهاز الهـاتف ويقذف به بعيدا ، فيكاد يصدم رأس زميله المساعد ، لولا ان رده جانب الوسادة ، الذي كان مرتفعا فوق ذراعه ، التي اعتادت ان تأخذ مكانها تحت الوسادة ، كلما أخذ رأسه موضعه فوقها .. وفي هذه اللحظـة اخذ الرقيب يسترد كامل يقظته ، فاعتذر لرفيقه بأنه كان يحلم انـه في خط النار ، وقد سقطت بجانبه قذيفة يدوية ، فالتقطها ورمى بها ليتفادى انفجارها ..

وكان جرس الهاتف مستمرا في رنينه ، فرفع الرقيب السماعة..

ـ من هنا ؟

ـ هنا مركز درك قطنا ..

ـ هنا مركز الضابطة العـــامة في قوة اليرموك بدمشق .. الرقيب برهان يتكلم .

ـ شكرا .. هنا زميل لكم من ضابطة اليرموك في معسكر قطنـا وجد قتيلا عند مدخل البلد ..

ـ رقيب .. قتيل ؟!.. أهكذا قلت ؟!..

ـ نعم .. رقيب من ضابطة اليرموك الخاصة في قطنا .. وجدته جوالة الدرك قتيلا .. او ميتا ..

ـ قتيل .. ميت !.. أقتيل هو أم ميت ؟!

ـ المكان يوهم ان في الامر جريمة .. ولكن لا يبدو في الجثمان ما يدل على ذلك .

ـ شكرا .. احرسوا الجثمان .. سنجري اللازم حالا .

وأعاد الرقيب السماعة .. وأطرق يفكر : الساعة الان الثانية ، ومعنى ذلك انه لم يمض على نومه سوى ساعة .. وقد قضى يومـه في عمل متواصـــل يراقب المتطوعة ، ويستمـــع الى الشكـاوى و ... عشرات الاشياء الاخرى ، وكان يمني نفسه باغفاءة لا يقطعهـا الا النهوض لصلاة الفجر .. وها هو ذا مضطر الى مغادرة فراشه قبل الموعد بثلاث ساعات ، ليبدأ عملا لا يعلم متى ينتهي .. ومن يـدري فقد يكون الرجل ميتا لا قتيلا ، ما دام الدرك ، وهم الذين شاهـدوا جثمانه ، لا يستطيعون القطع بأحد الامرين . وفي هذه الحال سيكون مجهوده خاليا من كل معنى .

وتذكر برهان ان مثل هذا التفكير لا يحسن بالانسان الذي وهب نفسه لواجب الجهاد ، الجهاد الذي لا يكون قتالا للعدو فقط ، بـل قتالا للاهواء ، وقتالا للكسل الذي يـدفع صاحبه لايثار النوم عـلى التحقيق في قضية كهذه .. أيا كانت نتائجها .

على انه لم يخطر في ذهنه موضوع الجهاد حتى أحس بانقباض موجع .. لقد انتظم في سلك المجاهدين ، في غمرة من الحماسـة الروحية التي تجعل الاستشهاد أروع ما يتصوره القلب المؤمـن ... وهو الروح الذي كان يسيطر على معسكـرات المجاهدين جميعا ، وبه بدأت المعارك الاولى ، فكان النصر ، وكان القتل ، وكان كلاهما شيئا جميلا في نظر هؤلاء الذين فارقوا اهليهم وأعمالهم ابتغاء رضوان الله .

ولا يزال يـــذكر الساعة التي فقد فيها رفيقه ومواطنه اللاذقـي « محمد الصباغ » .. ذلك الفتى الذي لم يستطع والداه صده عـن خوض هذه الغمرة ، لانه كان شديد الرغبة في الشهادة ، فأبى الله الا ان يحقق له رغبته ، وتم ذلك برصاصة يهودية حطمت فكه الاسفل وحملت اليه المنية ، بينما كان الى جانبه يطلق نيران بندقيته عـلى العدو .. وتحول الاصابة بينه وبين الكلام ، فيسلم الروح وعلى ثغره ابتسامة الرضى بما آتاه الله من فضله . ولقد خاض برهان بعد معركة القدس تلك عدة ملاحم ، ورأى العديد من رفاقه المؤمنين يسبقونـه الى الجنة ، وفي كل مرة كان يتطلع الى حظه من هذه النعمة ، مزودا نفسه لها بكل ما يسعه .. ولكن الله لم يقدر له هذا المصير ، ومد بأجله حتى اليوم .. ليشهد التدهور المريع الذي بدأ يراود النفوس، فيطفىء شيئا فشيئا توهج الوقدة المقدسة ، التي ساقته الى هـذه الساحات .. وها هو ذا يرى بعيني رأسه ذلك التطور الفاجع الـذي أعقب الهدنة ، فجعل يحول انطاقات ، التي كانت معبأة لدك معاقـل اليهود ، واستنقاذ الارض المقدسة ، الى تدمير نفسها بهذه الخلافات اليومية التي يثيرها المنطوعة فيما بينهم لانفه الاسباب .. ثم بهـذه الانحرافات التي أخذت تطل هنا وهناك من بعض النفوس التي اعتادت الانحراف من قبل ، ثم وجدت في انجهاد من اجل فلسطين فرصـة للتوبة والتطهر .. حتى اذا تسرب روح الوهن الى جهاز النضال العام، استيقظت فيها عوامل الضعف القديمة ، فتكاد اليوم تستانف سيرتها الاولى ، لا يمنعها من ذلك الا هذه البقية الباقية مـن روح النظام .. الذي تكافح الضابطة من أجل صيانته في هذه المعسكرات ..

ومما يساعد على مضاعفة هذا الانهيار المعنوي تلك الانباء التـي تأخذ طريقها بفوة الى كل شفة ولسان بين المنطوعة .. انها انبـاء الخيانات التي تنسب الى طائفة من الكبار .. الذين تصدروا لقيادة الجهاد ، فاذا هم ، فيما يقال ، يتواطأون مع العدو على تسليم الارض المقدسة !.. لقد بدأت هذه الشوائع همسات في الخلوات ، ثم انتهت الى العلانية ، يتداولها الجميع بين مصدق ومكذب .. وكفى بهـذا وحده مثيرا للشكوك ، مثبطا للعزائم ، مدمرا للحماسة ، محطما لكل تصميم روحي !..

وكانت هذه التصورات تتفاعل في صدر الرقيب برهان وخياله ، بينما هو متجه في سيارة الجيب نحو منزل القائد .. ولما وقفت بـه السيارة لدى الباب انتزع نفسه من شروده ، واعلن مهمته لحـرس المنزل ، وبعد قليل أقبل العقيد في ثياب النوم ليستمع الى الخبر ، وليتلقى الرقيب توجيهاته اللازمة .. ثم عـاد الى السيارة ليصحب الرئيس الذي كلف التحقيق في القضية ..

- ٢ -

وكانت الساعة لا تعدو الثالثة الا قليلا ، عندما وصل مكلفو التحقيق الى حيث يستقر الجثمان تحت شجرة الجوز العجوز ، التي تظلـل أغصانها بعض الطريق الداخل الى قطنا .. وترجل الرئيس وكاتبـه، وتبعهما الرقيب برهان ليلقوا النظر الذي لا بد منه على الجسـد الهامـد .

كانت الظلمة طاغية .. والجو ، كشأنه في مثل هذه الليلة مـن

آذار ، فارسا ، ولكن مصباح الضغط ، الذي احضره رجال الدرك لحراسة الجثمان ، بدد الكثير من تلك الظلمة ، ونشر شيئا غير قليل من الدفء ..

ونظر المحقق ومن معه الى ذلك الجسد المنبطح على صدره ، وقد امتد كل من ذراعيه في شبه زاوية قائمة ، وانفرجت ساقاه .. ولم يبد من وجهه سوى جانبيه ، لان مقدمته لاصقة بالارض ..

وتراءى ذلك الهيكل العملاق تحت الضوء المشع مهيب المنظر ، يوحي بأن صاحبه كان على حظ من القوة الجسدية غير يسير .

ولم يشأ المحقق ان يغير وضع الجثمان ، بانتظار الطبيب الشرعي .. ولكنه جعل يدقق النظر من أعلاه الى أدناه ، فلم يلمح أي اثر لجريمة .. اللهم الا ذلك التماس الشديد الذي بدا بين وجهه والارض ، حتى لكأن انفه قد كسر او بسط تحت ضغط ثقيل . غير ان مثل هذا قد يتأتى من أيد آثمة كما يحدث من سقطة فادحة .. ومن يدري ، فقد يكون الرجل مصابا بالصرع ، وقد فاجأه هنا ، فأكبه على وجهه بهذه الصورة !

وبدأ المحقق استيضاحاته مع كبير الدرك :

ـ من الرجل .. وما اسمه .. ومن أي البلاد هو ؟

ـ اسمه عبد الله خليل .. وهو اردني من اربد .. كان يتردد على مركزنا اثناء تجواله لمراقبة المتطوعين ..

ـ اذن فانتم تعرفون الكثير عن سلوكه الخلقي ؟

ـ بالتأكيد .. انه رجل شهم يتحلى باخلاص كبير .. وكان صارما في حماية النظام .. مما جعل الكثيرين غير راضين عنه ..

وأمسك المحقق عن متابعة الاسئلة ، ليفكر بما يسمع ، ولاح عليه انه وجد في بعض هذا الوصف ما يستحق اهتمامه .. ثم طلب الى الرجل ان يطلعه على التقرير الذي كتبوه عن مشاهداتهم .

وقرأ التقرير .. ووقف عند هذه الاسطر : « وكان اخر عمل قام به في قطنا هو اخراجه بعض المتطوعة بالقوة من خمارة « ابو جورج » ..

وفي تمام الساعة الثانية عشرة مر بنا في طريقه الى المعسكر ، ثم حوالي الساعة الواحدة والنصف شاهدته جوالتنا فاقد الروح تحت شجرة الجوز .. » .

وسأل الرجل مرة اخرى : هل تعرفون أحدا من اولئك الذين أكرههم على مغادرة الخمارة ؟!

وجاءه الجواب بالنفي .. فالتفت الى الرقيب برهان : يحسن ان تحضر لي صاحب الخمارة وسيرافقك احد الدرك ليرشدك الى داره .. وستجدني بانتظاركم في مخفر الدرك .. » .

وترك المحقق الجثمان للطبيب الذي وصل آنئذ .. ومضى بسيارته الى داخل البلد ، ثم لم يكد يستقر الا قليلا حتى أقبلت سيارة الرقيب برهان بالخمار ، الذي أوشك قلبه ان يقف من شدة الرعب .. ولما رأى المحقق اضطرابه سكن روعه ، وأشار اليه بالجلوس ، ثم جعل يسأله في لهجة لا تبعث القلق :

ـ الرقيب في الضابطة الخاصة لقوة اليرموك في قطنا عبد الله خليل الاردني .. قد مر بحانتك مساء اليوم .. هل تذكر ؟

ـ نعم اذكر جيدا .

ـ ماذا عمل عندك ؟

ـ اخرج المتطوعة الذين كانوا يعربدون .. وعلى الفور أغلقت حانتي ودخلت الدار .. ثم لم اغادرها الا الساعة .

ـ حسن .. تذكر .. هل تعرف هؤلاء المتطوعة ؟

ـ انهم من أقطار مختلفة .. اليمن .. الحجاز .. العراق و ... ولذلك من العسير ان اعرفهم جميعا .

ـ اذن فانت تعرف بعضهم ؟

ـ طبعا ..

ـ أذكر لي اسم هذا البعض .

ـ سعيد حمدو الفلسطيني ، وعبده الخالد من الاردن .

ـ ثم من ؟

ـ لا اعرف اسماء الاخرين .. ولكن أظنني أعرف وجوههم ..

ولم يشأ المحقق ان يقطع تسلسل العمل فدعا بالرقيب برهان ، وكلفه ان يحمل الخمار في سيارته .. وبعد مكالمة هاتفية قصيرة انطلقت السيارتان في الطريق الى معسكر اليرموك خارج قطنا .

ـ ٢ ـ

ودخل المحقق مع رئيس مثله من المعسكر ، ووراءه كاتب التحقيق والرقيب برهان .. دخلوا جميعا احدى قاعات النوم ، وكان نزلاؤها الثمانية يغطون في نوم عميق ..

وطلب المحقق ان يؤتى اولا بسعيد وعبده .. فأوقظا بصعوبة ، وكلفا ارتداء ثيابهما ، ثم اخرجا الى غرفة مجاورة ، حيث جهز للمحقق مكتب مرتجل ...

ونظر المحقق الى المتطوعين ، وقد اخذتهما رعشة ظاهرة .. وبدا الجحوظ في عينيهما القلقتين ، فلم ير في ذلك ما يسترعي الاهتمام ، بل وجد له ما يسوغه في برودة الجو ، والنهوض المباغت من النوم ، وأشار الى احد الاثنين بأن يدنو منه ، ولكنه لم يفهم ما يريد ، وجعل ينقل بصره بين رفيقه والمحقق في نظرات زائغة ، فاضطر المحقق ان يشعره بقصده اليه ، وقال له في لهجة الآمر : انت .. تعال ..

ولكن الرجل غلبه الارتباك ، فأخذ يجمجم ، وهو يسارق رفيقه النظر : انا !! لا ... ما انا .. هو .. هو ..!

وبدا رفيقه فاغر الفم ، كأنه عجز عن النطق ، وقد بهتت عيناه ، وانطفأ بريقهما ، فكأنهما مصنوعتان من الزجاج ، ولم يستطع ضبط ساقيه ، فجعلتا تهتزان بصورة افقدته التوازن ..

وهنا امر المحقق باخراج هذا الى مكان اخر ، ودفع الاول نحو مكتبه مكرها ..

ـ لم يبق مجال للكتمان .. خير لك ان تعترف .. والا فقدت

يصدر قريبا عن :

دار الاتحاد

تسع قصص

الرواية الفائزة بارفع الجوائز الادبية في اميركا

للكاتب الشهير **ج. د. سالنجر** ـ ترجمة **ملك ابيض العيسمي**

الملفون

من روائع القصص الثوري الجزائري

كتبتها **آسيا جبار** ترجمها **منذر الجابري**

العبث

دراسة عميقة للفيلسوف الكبير **البير كامو**

ترجمها **سالم نصار**

دار الاتحاد **للطباعة والنشر**

البناية المركزية ـ شارع الام جيلاس ـ ص. ب : ٢٢٥٩ ـ بيروت لبنان

كل حق بالعطف ...

– اقسم لك .. اني .. اني .. لم اشترك بالقتل ..

واهتزت اعصاب المحقق وهو يسمع لفظة القتل .. القتل الذي لم يذكر انه رأى في هيئة القتيل اي دليل على حدوثه .. وثارت رغبته في معرفة التفاصيل التي بدأت تتدفق بغير جهد ..

– لكن دورك بارز في الجريمة .. قلت لك : تكلم بصراحة وصدق لتستحق العطف .. وسترى ان كل شيء معروف .. ولا سبيل الى الانكار ..

وبلغت أعصاب المتهم نهاية الانهيار ، ولم يبق له من سلطان على نفسه ، فأخذ يتكلم ، ويسجل الكاتب كل حرف من كلامه . وحتى اذا استنفد التحقيق غرضه امره المحقق بالجلوس .. وحذره ان يتكلم الا باذنه .. ثم دعا بالمتهم الثاني :

– أي عبده !.. لقد اتضح كل شيء .. فعليك بالصدق اذا شئت ان يكون لك حظ في الرحمة ..

وحدق في وجه رفيقه سعيد قبل اية كلمة .. ورآه يحرك كتفيه ويقلب كفيه اشعارا باعترافه .. لم يدر باي كلمة يجب ان يبدأ ، وجعل يتمتم :

– الشيطان .. الشيطان .. لـ ...

وشد على اسنانه يريد اتمام كلمته ، ولكنه عجز عن ذلك .. ثم لم يستطع كلاما الا بعد ان نضح وجهه بالماء ، ومص بعض قطرات منه .. ثم راح يفضي بمكنوناته في حال من الاعياء الارادي التام .

وتوالى الافراد باعترافهم واحدا تلو الاخر .. وكان في اقرار كل منهم ضرب من الايحاء القاهر ، يجر الاخر مكرها الى الافضاء بكل ما في نفسه ..

وكانت الساعة قد قاربت السادسة .. وأطلت تباشير النهار ، فلم يبق مانع دون تمثيل وقائع الجريمة في مكانها ..

وعند شجرة الجوز توزع الثمانية مهامهم وأمكنتهم .. فتسلق عبده وآخر معه الفرع الممتد فوق الطريق ، وكمن اثنان في الخندق الايمن ، واحتل آخران خندقه الايسر .. ثم تولى الباقيان مراقبة طرفي الطريق ..

« .. وكان لا بد للرقيب من المرور بهذا المكان .. فلما ألقى مبروك حصاته على الشجرة تأهبنا للعمل ، وانتظرنا حتى كان الرقيب تحتنا ، فقذفنا بأنفسنا عليه ، وكاد يتغلب علينا رغم المفاجأة .. لولا ان ادركنا الرفاق من الخندقين ، فأخذ بعضهم بيديه وبعضهم برجليه، وتمكنا بذلك من دفعه على وجهه .. وكان علي ان اتولى عرك اخدعه الايمن ، وعلى عبده عرك الايسر ، ما زلنا بهما حتى خمدت حركته تماما .. وهنا جاء دور سعيد ففرس دبوسا في الفقرة الخلفية من عنقه حتى مزق الحبل الشوكي .. وبذلك تمت الخطة ، ونهضنا عن جسده .. » .

وكان « شحادة » يسرد هذه المعلومات وهو يتبع كلا منها بتمثيل عملي ، ويستشهد كلا من رفاقه على دوره في ذلك ، فيأتي الاقرار موحدا لا خلاف فيه ولا غموض ..

– ٤ –

.. واستغرقت محاكمة القتلة قرابة الثلاثة الاشهر .. وصدر الحكم باعدام ثلاثة منهم .. وتفاوت نصيب الباقين من السجن بين الخمس والخمس عشرة من السنين ..

وكان الرقيب برهان واقفا خارج قوس المحكمة يستمع الى قرارها، فلم يستطع ان يتمالك دمعتين كبيرتين تدحرجتا على وجنتيه ..

انه لا يشك في عدالة الحكم .. ولكنه يتساءل في حيرة وحرقة : لقد جاء هؤلاء ليظفروا بالشهادة في فلسطين ، او يسهموا في انقاذها ، فلماذا حرمو احدى الحسنيين ؟.. ومن المسؤول عن تحولهم الى هذا المصير الحقير !!!

محمد المجذوب

الاخلاق تخترعها الارانب

وتستثمرها الذئاب

صدر حديثا في بيروت الكتاب الضخم « **العالم ليس عقلا** » اخر ما كتب عبد الله القصيمي .. جاء في احد فصوله المعنون بالعنوان اعلاه ص ٣٩٦ : « لقد كان الانسان في التاريخ معبدا تتجمع فيه كل الارباب والطغاة والاشباح لتتآمر على سحقه . كانوا يريدون ان يوجدوا انسانا بلا شهوات ولا تفكير ولا حرية ، كان وجود هذا الانسان الخرافي امل جميع التعاليم المقدسة وامل جميع المسيطرين الاقوياء الذين تعاقبوا على البشر يسحقون عقولهم وشهواتهم ومجدهم . لقد حرموا عليهم الضحك وشجاعة القلب والفكر ، وكانت الالهة تغضب على الذين يضحكون ويفرحون ، ولا ترضى الا على من يحزنون ويبكون . كان البكاء والانهيار النفسي عبادة ومزية وخلقا ؟.. لقد كانوا يريدون أن يحولوا التاريخ كله الى مبكى ، ولم يكفهم ان حولوه الى معبد ؟. جربوا كل وسيلة رديئة ليقتلوا في الانسان كل اسباب الذكاء والقوة . وكان من هذه الوسائل أن ابتكروا خصاء الرجال ، ولم يكونوا يريدون ان يخصوا فيهم القوة الجنسية فقط ، بل ان يخصوا فيهم فحولة العقل والحرية والشجاعة ، كان اهتمامهم ان يوجدوا مجتمعات من الخصيان ، وجدوا أن الخصيان يفقدون كل طموح الى الحرية والتمرد والمقاومة . والذين يقومون بعملية الخصاء للمجتمعات موجودون في كل زمان ، كما يوجد الخصيان ايضا في كل زمان . وما من دكتاتور أو زعيم اناني او دجال روحاني الا وخطته ان يخصي شعبه .. ان التحدي والعبقرية والقوة المتفوقة شهوات لم يستطع الطغاة والتقاليد والمعلمون ان يخضعوها بالخصاء .. »

قال الاستاذ قدري قلعجي في جريدة الكفاح : « في هذا الكتاب فصول قل ان يوجد لها مثيل في شرق او غرب » وقال الدكتور صلاح المنجد في جريدة «الحياة»: « انه كتاب قل ان تخرج المطابع مثله ، ولا شك ان مؤلفه عبقري فذ ، ولو ان الكتاب صدر في بلد متحضر فكريا لضجت الصحف بتحليله ونقل الفصول عنه . » « انه كتاب لا مثيل له في اللغة العربية وانه نادر المثال بين الكتب الغربية التي اصدرها كبار العقل والقلب وان من لا يقرأ هذا الكتاب خليق ان يصفع .. » .